البعث طاقة حية متجددة

أيها الرفاق المناضلون[1]

يا جماهير أمتنا العربية الخالدة

تأتي هذه الذكرى، الثالثة والثلاثون، لانعقاد المؤتمر الاول لحزب البعث العربي الاشتراكي، لتذكرنا بجملة من الحقائق الموضوعية التي ميزت مسيرته. وكانت معالم بارزة في حياته، وفي مقدمة تلك الحقائق: أستمراريته النضالية.

ان ماضي أربعة عقود من المعاناة النضالية، ومن الالام التي تخللتها، ان هذا الماضي، قد صنعه مناضلون مؤمنون من أبناء هذه الامة المجيدة، تتابعوا قوافل وأفواجاً، يحملون راية النضال والتضحية والصبر. فكانوا يتساندون ويتناوبون. وعندما كانت مسيرتهم النضالية تضعف في قطر، اوتتعرض لنكسة، كان المناضلون في الاقطار الاخرى يضاعفون عزمهم وجهدهم. ان هذه الاستمرارية قد كانت تبرز دوما كحقيقة ناصعة، بالرغم من العثرات والنكسات والنواقص الذاتية، وهي التي أكدت هوية فكرية، وعبّرت عن شخصية متميزة، ورسمت خطاً نضالياً تاريخياً.

وهذه الحقيقة الموضوعية، هي ما يجدر ان نركز عليها الانظار، وان يستخلص البعثيون المعنى العميق الذي تنطوي عليه.

فجوهر هذه الاستمرارية، انما يكمن في السمات التي ميزت فكر البعث ونضاله، وجعلت منه حركة تاريخية يتعلق بها الشباب العربي، ويرفدها بأستمرار

---

(١) كلمة في السابع من نيسان عام ١٩٨٠، لمناسبة الذكرى الثالثة والثلاثين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي.

بالمناضلين لانها كانت تحقق له مالا يراه في حركات اخرى، ولانه كان يعتبرها المؤهلة لان تحمل مبادىء الثورة العربية وأهدافها بالشكل الجدي والثوري والعقلاني الحديث، المتجاوب مع روح العصر ومع تطلعات الجماهير.

فالبعث كان يمثل في نظر الاجيال العربية المتعاقبة، الروح الصامدة المتفائلة المصممة التي لاتعرف المساومة ولا التراجع ولا التردد. والروح الاخلاقية الصادقة التي تكشف كل ما هو زائف في الحياة وفي النضال. والحركة التي أنطلقت من الاصالة والارتباط الوثيق بالتراث الى الحوار مع المجتمعات الحديثة، والتي آمنت بالشعب وبالجماهير وبأنها هي التي تصنع التاريخ. وآمنت بالانسان وبالحرية، وبأن رسالة الامة لاتتحقق الا في أمة موحدة، وكانت فكرتها عامل تصحيح وتعميق مستمر للوعي القومي وللمسيرة النضالية.

أيها الرفاق البعثيون

ان الافواج المتلاحقة من المناضلين العرب، الذين تناوبوا حتى يوصلوا شعلة البعث الى الاجيال الجديدة، لايمكن ان يوفى ماضيهم حقه من التكريم والتقدير، والاجلال لتضحيات الشهداء الا اذا جعلت الاجيال الجديدة من هذه المناسبة القومية سبيلا وحافزاً الى أقتحام المستقبل، بنفس الروح التي أنطوت عليها مسيرة البعث خلال أربعين عاما، بكل ما فيها من توتر، وطاقة مختزنة ومتحفزة للانطلاق والتحقق.

فقد كان البعث حاضراً بكل مبررات وجوده، في كل مناسبة قومية تذكّره بماضيه، لينتزع العبرة من هذا الماضي، ويسلط الضوء على المستقبل، حتى يبقى منسجماً مع ذاته ومع السمات التي جعلته حركة أصيلة، تشق طريقها الصعب، وهي موطدة العزم على أنجاز مهماتها التاريخية كاملة.

فقد كان دأب حزبنا المستمر، ان يبني بناء صامداً للزمن، وان يحفر مجراه بعمق في المسيرة التاريخية للامة، وهذا ما جعل البعث يتميز عن الحركات التي أكتفت بأن تفجر أوضاعاً، وأن تنهي مرحلة دون أن تتمكن من وضع أساس راسخ لبناء متين، يكفل لها الاستمرار العميق. فكانت تلك الحركات تتألق ثم ما تلبث ان

تخبو بعد قليل، وينحسر تأثيرها، وتدور حول مشكلاتها القريبة فلا ترى البعيد، وحول نفسها، فلا تتمكن من تطوير نضالها، وتجاوز ذاتها.

في حين بقي البعث طريقاً صاعدة، وطاقة حية متجددة، تنتصر على النكسات، وتصنع الانتصارات. ولاسيما بعد ان أستلم العراق شعلة البعث المتوقدة، وأعطاها قوة وتوهجاً، عظيمين.

يا أبناء شعبنا العربي

لقد جاءت الاحداث تؤكد صواب نظرتنا القومية الاشتراكية المستقلة، المعبرة عن نظرة جديدة الى العالم، والى العلاقات الدولية، فان ما يجري اليوم من أحتكاك بين القوى الكبرى، وأقترابها من الساحة العربية، أنما يعزز هذا النهج والمنطق الذي رافق مسيرة البعث، والذي أستند الى يقين، بأن الجماهير العربية قد بلغت درجة من النضج والتمرس بالنضال، تؤهلها لشق طريقها المستقل، والاعتماد على قواها الذاتية وبناء مستقبلها الخاص الاصيل.

وهذه الحقيقة نفسها، هي التي تلقي الضوء على مستوى الصمود الذي تواجه به الامة العربية شتى ضروب التآمر على قضيتها. وبخاصة الهجمة الامبريالية - الصهيونية المتمثلة بأتفاقية (كامب ديفيد) التي أستهدفت طمس الحقوق القومية وكل التضحيات التي دفع الشعب العربي في مختلف أقطاره ثمناً لها، على أمتداد نضاله الطويل.

فالاحداث تأتي لتكشف بعد سنة من توقيع هذه الاتفاقية، ان ما يجري الان هو مكابرة لتغطية فشل إخراج مصر من معركة المصير العربي. فالسادات يزداد عزلة عربية يوماً بعد يوم، ويزداد عزلة عن جماهير مصر ذاتها، هذه الجماهير التي أدركت خطورة الحدث وحجم الخيانة التي أقدم عليها السادات، وكشفت الخدعة المسرحية التي حاول ان يغطيها بمختلف أشكال المنطق المستعار، والقيم الهجينة، ليخدر الشعب، ويطامن المصالح الطبقية التي تعيش على أستغلال الشعب، والتي أصبحت قاعدة نظام السادات، المعادي لثورة عبدالناصر البطولية.

فالجماهير، بقطاعاتها الطلابية والعمالية والمثقفة في مصر، التي تعبر عن

أستنكارها بين حين وآخر، وتتعرض للاضطهاد والقمع، انما تؤكد ما توقعته الامة العربية من قطرها المناضل، وتعزز الثقة بالقدرات النضالية المتنامية فيه، وبقدرتها على أفشال المخططات الامبريالية والصهيونية، التي ينفذها السادات.

فالزمن يسير نحو أنضاج التعبير الشامل والجارف الذي أعتادت عليه جماهير مصر. وبالرغم من الفراغ التنظيمي والسياسي لعشرين سنة، والوضع العربي الممزق، تؤكد الدلائل الايجابية الواعدة بأنتصارها على محنتها، هذه المحنة التي تشكل اليوم الجانب الموجع والاكثر أيلاما من محنة الامة.

فالامة العربية، بنضالها المتصاعد في كل قطر عربي، انما تنهي مرحلة من الشك والقلق، أستغلها، وراهن عليها الاعداء، والانظمة المستسلمة لمخططات التسوية. لان وعي الجماهير العربية، على أمتداد الوطن العربي، بات يطوق المؤامرة، ويستوعب الحقائق النضالية التي كشفتها الاحداث، والمعاناة القومية. وفي مقدمتها الحقيقة التالية: وهي ان نضال كل قطر، لن يكون قادرا على التخلص الكامل من قيوده، ولا على الاقتراب الجدي من تحقيق أهدافه الوطنية، والقومية التحررية، اذا لم يتعزز بنضال قومي موحد.

لذلك باتت الجماهير العربية تدرك بوضوح العلاقة العضوية المباشرة، بين المشاريع الاستسلامية، وبين المخططات المعادية للوحدة، والمآل الخطير لتلك المشاريع، مهما أختلفت صيغتها، على مصير الامة. وان وحدة الامة هي الطريق الوحيد لحل مشكلاتها الاساسية.

يا أبناء أمتنا المناضلة

ان تآمر الاعداء ينصب بالدرجة الاولى على هدف الوحدة. لان الوحدة، منذ ان تحققت أول تجربة لها قبل أثنين وعشرين عاما، لم تعد تعني، حتى بالنسبة للامبريالية والصهيونية، الا بداية تحرير فلسطين. وبتعبير آخر، فأن التجزئة أصبحت تساوي بقاء وأستمرار الكيان الصهيوني المغتصب لفلسطين.

وكما أرتبطت قضية الوحدة بمعركة التحرير. فانها أرتبطت بنفس الدرجة وبنفس القوة بثورة الجماهير العربية. لان تلك الوحدة، لم تكن ممكنة، الا لان الجماهير

العربية قد عرفت في ذلك الحين أعظم وأوسع مد ثوري نضالي .

ان جماهيرنا العربية، تدرك بحسها العميق ان الوحدة مرادفة لحياتها ومصيرها ومستقبلها، وانها وحدها هي الثورة . وانها معيار التقدم والنهضة . والكاشف الثابت والدائم لنواحي الضعف والخلل والتقصير في مسيرة الثورة العربية .

وهكذا يغدو مطلب الوحدة ثورة مستمرة في الحياة العربية الحديثة، يستدعي المراجعة الدائمة لكل نواحي العمل الثوري : في التوعية العامة، وفي التربية، وفي التنمية، وفي إعداد القوة المسلحة، وفي توزيع الثروة، وتأهيل الجماهير الواسعة، وأطلاق حريتها لكي تعبر عن ارادتها الوحدوية، وتجسدها نضالا، يخترق الحدود القطرية المصطنعة، ويلحق الفشل بكل مؤامرات الاعداء، ويخلق تحركاً تاريخياً لايتوقف الا بتحقيق الاهداف القومية .

يا جماهير أمتنا البطلة

لقد جاء الاعلان القومي، الذي طرحه الرفيق الرئيس صدام حسين في الذكرى السابعة عشرة لثورة ١٤ رمضان البطولية الاصيلة، مستوعباً لتلك الدروس كلها . فهو قد توجه، في ظرف من أخطر الظروف التي تمر على الامة العربية، الى الانظمة العربية على أختلاف أتجاهاتها، ومن فوق الانظمة، الى الجماهير العربية في أرجاء الوطن الكبير. لكي يجعل من الصراعات الدولية، والاطماع التوسعية، المهددة لاستقلال الاقطار العربية، والطامعة في الاستيلاء على ثرواتها، ويحولها الى مناسبة فريدة، تعبر فيها الامة العربية وجماهيرها المناضلة، عن إرادتها الراسخة في الاستقلالية، ورفض التبعية، وأنتزاع حقها الطبيعي في ان يكون لها دور وكلمة مسموعة، على الصعيد الدولي، في قضايا السلم والحرب، وقضايا التحرر والسيادة، والقضايا الاقتصادية، التي تمس مصير الشعوب، ومستقبل العالم .

ففي الاعلان القومي، روح ثورية لابد ان تقوى وان تتعمق، وان تكون مقدمة نحو أنعاش آمال وحدوية، كلما تجاوبت، وتفاعلت مع الجماهير العربية .

فقد قدم العراق، من خلال تجربته الثورية، دليلا جديداً على نضج التجربة العربية الثورية . وان الثورة العربية، التي هي حصيلة قرن ونصف من المعاناة

الفكرية والنضالية، ماضية نحو استكمال حقيقتها كقاعدة أنطلاق نحو مرحلة أنسانية جديدة.

أيها الاخوة المناضلون

ان نضج التجربة العربية المعاصرة، هو الذي جعل الامة العربية تستوعب أمراض واقعها، وأمراض عصرها. وجعل نضالها على مستوى الانبعاث العميق الشامل، والمستوعب للابعاد الروحية والانسانية للوجود القومي. لذلك كان من الطبيعي ان يؤكد تراث حزبكم منذ البداية، على ان الانبعاث القومي، لابد ان يقترن بأنبعاث روحي ينبث في كل حياتنا، الخاصة والعامة، كروح وأخلاق، ودافع للثورة وللتجدد، ومحرض على التعمق، والتحرر من الجمود والمصالح الخاصة، او من الزهو والغرور الذي يرافق السلوك السياسي السطحي، والعودة الى الينابيع الروحية والاخلاقية. فالانبعاث الروحي يفعل المعجزات عندما يحرك أعمق القوى في الجماهير، ويدفعها الى الاستشهاد والبطولة.

ولكن عندما يراد لهذا الانبعاث الروحي ان يقنن في اشكال ضيقة، تدخلها عوامل ومصالح غريبة عن روحه، ويرتبط بأهداف لاتستوعب منطق العصر، فأن المنطلق الروحي يبتعد عن حقيقته. لابل، ويهبط احياناً الى مستوى الارهاب المعنوي والمادي، الذي تمارسه اليوم القوى التي تدعي لنفسها تمثيل القيم المطلقة، والتي يعطل حقدها الدفين على العروبة كل أستعداد للحوار والتعاون المخلص مع حركة الثورة العربية، وما تنطوي عليه من آفاق رحبة، وأنبعاث روحي عميق، والتي لاتعرف الضيق والحقد والتعصب، لانها تنظر الى الحرية والى الافق الانساني الحضاري كشرط للانبعاث الروحي الاصيل.

لذلك فنحن البعثيين، نستشعر الحاجة الدائمة في نضالنا الى الاستلهام الحر للينابيع الروحية، والانشداد الى جو القيم المطلقة، والى استنشاق هذا الهواء النقي، لكي تبقى الثورة القومية في مستوى عال، وفي تدفق حيوي، وفي منظور حضاري رسالي أنساني.

وعندما تكون المسيرة ثورية بكل أبعادها، القومية والاجتماعية والاخلاقية

والانسانية، فانها تروي ظمأ النفوس المتعطشة الى المثل، وخاصة تيار الشبيبة المتطلع الى الخلق والابداع والانجاز التاريخي.

فالشباب يفتش عن مسرح لبطولته، وعندما تغيب الملامح القومية والافاق الروحية المفجّرة للدوافع العميقة للثورة، فانه يؤول الى التمزق والقلق، واحياناً الى العنف.

وقد أدرك البعث منذ الوهلة الاولى، أهمية الطاقة الثورية المثالية لدى الشباب. كما نظر الى هذا العصر من خلال كونه عصر الجماهير الشابة. ونظر ايضا، الى الامة العربية في نهضتها على ضوء هذه النظرة. فهي أمة شابة ثائرة. وهي لابد ان تعتمد في ثورتها أعتماداً أساسياً على عنصر الشباب.

لذلك أنطلق البعث من أجواء الشباب، فكانت الشبيبة المثقفة قاعدة نضاله الاولى، ومنها أنطلق الى البيئات الثورية الحية الاخرى، حيث الكادحون من العمال والفلاحين والجنود وأبناء الشعب المناضلين.

فالبعث يرى في معاناة الاجيال الجديدة، وفي قلقها، دليلا على اعتمال الثورة في نفوس الشباب العربي، وحاجة هذه الثورة الى التحقق، جنباً الى جنب مع نضال الجماهير ومن خلال الحرية والمسؤولية، كشرطين أساسيين، لجعل هذه الثورية عميقة جدية، وعامل تجديد دائم لاصالة الثورة العربية، وبخاصة في الاقطار التي أصبحت أنظمتها عقبة في وجه دور الشباب، وتطلعاتهم وطموحهم، وأصبح واقعها تشويهاً لدوافعهم المثالية، وأجهاضاً للدور القومي المتميز لتلك الاقطار.

يا جماهير أمتنا العربية

ان طاقات ضخمة ما تزال معطلة في الامة. وما تزال أوضاع التجزئة تغري أعداء النهضة العربية، برفع التحديات في وجهها، وانزال النكسات في مسار القضية العربية. هذا في وقت تتجمع فيه الدروس والعبر الكافية لاستخلاص الحلول، وشق طريق جديد امام النضال العربي. والدرس الاول، يكمن في ضرورة التواصل والتساند بين القوى العربية المناضلة، وتجنب آفات الاستئثار في العمل القومي، والتوجه نحو القوى المختزنة في الامة لاطلاقها في وجه العدو.

فالامة باتت تعوّل على دور الجماهير العربية، التي ما تزال طاقة أحتياطية لم تستغل بعد. وعلى مجيء المغرب العربي بقوة أكبر، حاملاً معه، أصالة تونس، وتطلع المغرب، وثورة الجزائر، التي كان لها ولايزال، رصيدها النضالي الكبير في المشرق العربي، يشجع دوماً على التفاؤل بدور متصاعد لها، مع الاقطار المغربية الاخرى، في المعركة القومية. اي في تعزيز الروح القتالية المتجهة نحو فلسطين، لمواجهة التحديات المصيرية. وكذلك في العمل الوحدوي الذي يشكل ضمانة التحرير.

ان أعداء الامة يدركون معنى أندماج نضال المشرق بالمغرب، وأهميته في تحقيق أنعطاف حاسم في مسار القضية القومية، ودفعها في طريق الانتصارات. لذلك كان من الطبيعي ان يضعوا كل ثقلهم لاصطناع العقد المختلفة حتى يباعدوا بين جناحي الامة العربية. ولكن جواب المغرب العربي، لابد ان يكون معبراً عن نضج المرحلة النضالية الجديدة التي تمر بها الامة العربية. فالمغرب العربي عندما يأتي بكل ثقله الى المعركة المصيرية، قوة تاريخية لها دور قومي وحضاري كبير في بعث الامة العربية.

أيها البعثيون المناضلون

عندما تتجمع الاخطار على أمة، ويخيم جو من القلق والانفعالات السلبية على أبنائها، تفاجيء الامة نفسها بظهور قوى كانت خفية الا انها مهيئة للظهور، هكذا القوى التاريخية، تتجمع وتتفجر في وجه العوامل المهددة لمصير الامم، فتكون ظروف المحن عوامل أنضاج وتحضير لانبثاقها.

وهكذا أنبثقت حركتكم التاريخية ايضاً، كجزء طليعي من نهضة أمتنا العربية الخالدة، التي لاترى في الواقع الراهن قوى قادرة على تفجير إمكانات جديدة سوى في هذا الجزء الحي المتمثل في ثورتكم في العراق، وفي القوى الثورية التي ما تزال، في مختلف أرجاء الوطن الكبير، تتمسك بشرف المبادىء والقيم التي قام عليها الوجود العربي في التاريخ.

فاذا كان البعث قد ملأ مرحلة، وسد فراغاً نضالياً في حياة الامة، ونقل نهضتها

من مرحلة العفوية الى مرحلة ثورية، وشق طريقاً معبراً عن روح الامة، وعن وعيها لذاتها وعياً معاصراً. فان ثورة هذا الحزب في العراق، جاءت لتجعل هذه المسيرة النضالية ركيزة ثابتة، لاتتزعزع ولا تتراجع عن تحقيق الاهداف الانبعاثية للامة.

فأنتم ايها البعثيون، على أرض هذه التجربة الثورية الأمينة تشكلون الامل في بحران القنوط والتشاؤم واليأس، تفتحون نوافذ جديدة وأبوابا للتفاؤل الكبير وللنضال عندما تشتد محن الامة.

انتم الذين أستوعبتم دروس مسيرتكم القومية، وتقدمتم في الوعي وفي النضال، فتجنبتم الاخطاء المدمرة، وأرتفعتم الى مستوى المهمة التاريخية، فلم يكن عملكم سياسياً تقليدياً، ولامبدئياً مجرداً، ولم تكن معالجتكم لقضايا الامة، معالجة ظرفية آنية. كما انها لم تغرق في محيط الاحلام اللامرئية للمستقبل.

انتم الذين حملتم الأمانة بصدق، وأخلصتم لتراثكم، وكنتم أوفياء لمسيرة الحزب النضالية الطويلة وجعلتم من المبدئية والاخلاقية والرصانة والجدية، وهي السمات البعثية الاصيلة، منهج عمل وحياة، وعنوان شخصية بطولية فذة.

انتم الذين رعيتم الفكر ووضعتم الثقافة في مكانها، سلاحاً في المعركة، وترجمتم المعاناة الى ضوابط موضوعية ثورية.

انتم الذين وضعتم العراق العظيم على طريق قيادة الانبعاث للامة، فأعدتم له دوره التاريخي في الحياة العربية، أنتم ايها الرفاق، مفاجأة البعث لنفسه، ومفاجأة الامة لذاتها.

اننا نتطلع الى المستقبل بثقة، لان جيلا عربيا صهرته المبادىء والتجارب، قد أكتسب النضج، ولان قطراً عظيماً كالعراق، قد أصبح مسرح بطولة هذا الجيل، يتقدم الى أمام، على طريق الوحدة والحرية والاشتراكية، يفجر طاقات الجماهير، ويزرع الحرية على أرضها، لتنبت الابداع في النضال وفي صنع الحضارة.

فالامة التي طال حنينها الى الانتصار. الامة التي فقدت أجزاء غالية من كيانها، وتكاد تفقد أجزاء جديدة، الامة التي تعيش جماهيرها المناضلة في الكدح، في وقت تتبعثر فيه الثروة القومية وتغترب، ان هذه الامة التي ملأت تاريخ العالم، لا

يمكن ان تغمض الجفن على واقع يتناقض مع حقيقتها، ويهدر طاقاتها، ويمزق جسدها ويسيء الى كرامتها، وينتقص من عنفوانها. لانها أمة ذات رسالة.

وانتم ايها الرفاق، تحملون اليوم شرف بعث هذه الرسالة، لانكم بها جديرون.

المجد لشهداء الامة وشهداء البعث.

وتحية نضال لكل قوى الثورة والنضال على الارض العربية.

ولجماهيرنا العربية عهد البعث، بأن يكون وفيا لمطامحها، متقدما صفوف النضال حتى ترتفع راية الامة على أرض الوحدة والحرية والاشتراكية.